الفصل الثالث عشر

العودة إلى الوطن

رحبت الجماعة الإسلامية في المدينة بالنساء والرجال الذين كانوا قد هاجروا إلى الحبشة وعاشوا هناك مدة خمس عشرة سنة تقريباً، كان من بينهم جعفر بن أبي طالب ﷺ (الذي عاد وقد تزوج أسماء بنت عميس وأصبح أباً لثلاثة أطفال). وعادت أيضاً أم حبيبة بنت أبي سفيان التي تم عقد قرانها وناب فيه النجاشي عن محمدﷺ، واستقر بها المقام في بيتها قرب المسجد، واستمرت الحياة اليومية وظل عدد المسلمين يزداد ازدياداً مطرداً، الأمر الذي دفع النبي ﷺ لزيادة مناسبات التثقيف بالدين وأن يعهد إلى أخلص صحابته بهذه المهمة.

وكانت الأعمال القتالية تندلع هنا وهناك، وظل محمد ﷺ يرسل جماعات صغيرة لتسوية الأمور، لكن كانت الحاجة تدعو في بعض الأحيان إلى قتال قبائل بقيت مصممة على تحدي سيطرة المدينة.

أسامة بن زيد ﷺ

وكان محمد ﷺ قد أرسل حملة إلى قبائل بدوية شمالية، لاسيما قبيلة بني مرة التي ظلت تهاجم المزارعين اليهود الذين كانوا يعملون في واحة فدك، التي كانت خاضعة لسلطة النبي ﷺ. وقد واجه المسلمون مقاومة عنيفة وقتل جميع

أفراد الحملة الثلاثين، وقرر النبي ﷺ إرسال جماعة أخرى تضم مئتي رجل، بمن فيهم أسامة بن زيد رضي الله عنه، الذي كان عمره سبعة عشَر عاماً فقط[1].

كانت المعركة صعبة حيث إن عدداً من القبائل قد انضموا إلى بعضهم على أمل إلحاق الهزيمة بالمقاتلين المسلمين والاستيلاء على واحة فدك وثرواتها، غير أن الوضع انقلب لمصلحة المسلمين، وقد سخر أحد أفراد قبيلة بني مرة من أسامة رضي الله عنه وصغر سنه، ولم يستطع أسامة رضي الله عنه لجم حدة غضبه فقرر خوض القتال على الفور ضد الرجل الذي استهان به، وبما أن موقف البدوي كان ضيفاً فقد فضل الفرار على مقاتلة أسامة رضي الله عنه . وقد دفع الغضب أسامة رضي الله عنه إلى ملاحقته متجاهلاً أمر قائد الحملة بأن يبقى الجميع معاً في جميع الأوقات، وقد استطاع أسامة رضي الله عنه اللحاق بعدوه وألقى به أرضاً وجرحه، فصرخ البدوي: «أشهد أنّ لا إله إلا الله!» لكن أسامة تجاهل هذا وقتله، وعندما عاد إلى المعسكر وروى القصة استنكر قائد الجماعة وبقية الجنود سلوكه، وأدرك أسامة رضي الله عنه فداحة خطئه وعزل نفسه إلى حين عودتهم إلى المدينة.

ذهب أسامة رضي الله عنه على الفور لرؤية النبي ﷺ الذي رحب به بحرارة شديدة في أول الأمر. على أنه عندما أخبره أسامة رضي الله عنه عن المبارزة، أعرب النبي ﷺ عن استنكاره الشديد وسأله: «أقتلت رجلاً شهد أنّ لا إله إلا الله؟» فأجاب أسامة أن البدوي لم يتفوه بالشهادة إلا ليتجنب القتل على يد أسامة، فقال له النبي ﷺ: «أو شققت عن صدره لتعرف إن كان صادقاً أو كاذباً؟» أصيب أسامة رضي الله عنه بالجزع وخشي ألا تغتفر خطيئته.

علـى أن النبـي ﷺ سامحه، بعد أن لقنه درساً عن الطريقة التي يجب أن يتعامل بها المرء مع الناس وأسرار قلوبهم، في الحرب أو السلم.

كانت شهادة البدوي تقتضي ألا يتعرض للقتل على يد أسامة رضي الله عنه. فإذا كان صادقاً، كان من البدهي أنه يجب على أسامة رضي الله عنه الإبقاء على حياته، وإن لم يكـن صادقاً، فإن قوله كان عبارة عـن أنه ينشد السلام والرحمة، في مثـل هذه الحالة، كان الوحـي قد أهاب بالمسلمين بأن يتذرعوا بالفطنة وضبط النفس وأن ينشدوا السلام.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾[2].

فالبدوي عندما رأى الموت طلب السلام لكن أسامة الذي أعماه تصميمه على الدفاع عن شرفه في هذه الدنيا (حيث إنه تعرض للسخرية) عاد إلى الممارسات القبلية التـي كان يجب فهمه للإسلام أن يهذبها، فمهما كانت نظرتـه إلى النوايا الكامنـة وراء نطق عدوه بالشهادة، فما من شيء يمكن أن يـبرر تصرفه أو موقفه، وقد عاهد أسامـة رضي الله عنه نفسه بألا يطلق العنان لنفسـه بتلك الطريقة وأن يتصرف بعد ذلك بفطنة واحترام، وسوف نرى أن النبي ﷺ سوف يعهد إليه بعد ثلاث سنوات ـ عند اقتراب انتقاله من هذه الدنيا ـ بالوصايا والدروس التي تشكل أخلاق الحرب الإسلامية.

إن ما في القلوب يتجاوز معرفة البشر، وقد كان النبي ﷺ نفسه مثالاً في الحرص والتواضع عندما كان الأمر يتعلق بالحكم على الأفراد الذين كان صدقهم ونواياهم موضع شك، وكان يعرف حق المعرفة أنه يوجد الكثيرون من المنافقين حوله، لكنه لم يتخذ أي إجراء إزاءهم، فقد ظل حذراً وفي بعض الأحيان محترساً، لكنه كان يتجنب إصدار أي حكم نهائي، وأوضح مثال على ذلك كان عبد الله بن أُبَيّ بن سلول، الذي كذب عدة مرات، ثم انشق عن المسلمين قبل معركة أحد وبقي يحافظ على علاقاته مع أعداء الجماعة الإسلامية، لكن النبي ﷺ لم يتخذ أي إجراء انتقامي بحقه هو وأصدقائه، سوى أنه كان يستبعده من الأوضاع الحساسة أو الحملات، بل إنه صلى عليه عندما توفي بعد مدة قصيرة من عودته من غزوة تبوك، على الرغم من احتجاج عمر الشديد.

وعلاوة على ذلك فقد نهاه الوحي عن الصلاة على المنافقين المشهورين، برداءة السمعة: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ (3).

ومع أن هذه الآية التي تبدو صارمة وواضحة بشأن الموقف الذي يتعين اتخاذه من المنافقين عند موتهم، إلا أنه يعبر بخلاف ذلك عن رسالة صارمة بشأن طريقة التعامل معهم في شؤون الحياة اليومية وحتى آخر لحظات حياتهم، فما من شيء يبرر إصدار حكم نهائي على نفاقهم طيلة حياتهم، وتجلى السلوك المناسب في المثال الذي ضربه النبي ﷺ الذي لم يسمح لنفسه بإصدار حكم عن أي منافق طيلة حياة ذلك

المنافـق، إذ إن كل شيء يظل ممكناً حتى آخر النهاية فيما يتعلق بتحول القلب وصدقه، وقد نهاه الله عن الصلاة عليهم فقط بعد موته، حين لم يعـد بالإمكان حدوث العكس وأصبح مـن الواضح أنهم عاشوا وماتوا في النفاق والخيانة والأكاذيب[4].

ماريا

استمـر النبـي ﷺ في حياتـه الخاصـة التي كانـت تفيض منـه أن يولي اهتماماً خاصاً لزوجاته، حيث إنه كانت تحدث في بعض الأحيان توترات حادة ومزعجـة بين النساء أو مـع أسر كل منهن. أما هو فقد ظل يسترضي الجميع ولا يجب إزعاج أي من زوجاته. وقد روت عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ كان موجـوداً دائماً ومنخرطـاً في حياته المنزلية وأنه كان يراعي زوجاته ويساعدهـن في عملهن المنـزلي وكان «يخيط نعله ويرقع ثوبـه» ولا يتوقف إلا حـين يسمع الأذان ويذهـب إلى المسجد[5]. وكان في جميـع الأحوال، حتى في شهـر رمضان، لطيفاً ورقيقاً وودوداً بشكل خاص، وتؤكد روايات عديدة عن عائشـة ــ رضي الله عنها ــ بشكل خاص، هذا الجانب مـن شخصيته الذي كانت زوجاته يقدرنه فيه ويُشدن به.

لقـد نجم عن الحياة في المدينة، حيث كانت النساء أكثر وجوداً أو حيوية ممـا كانـت عليه الحـال في مكـة، والوضع الاقتصـادي الـذي تحسن، عدة تغيـيرات في سلـوك زوجـات النبي ﷺ. وهـذا أزعج عمـر رضي الله عنه الذي كانت زوجتـه لا تتردد في مراجعته، خلافاً لعادات نسـاء مكة، وعندما عاتب عمر رضي الله عنه زوجتـه، أجابت بـأن ابنتهما حفصة ــ رضي الله عنها ــ ذاتها، كانت تقوم بنفـس الطريقة بمراجعة النبي ﷺ، زوجها، الذي كان يقبل ذلك وأن

علـى عمر ﷺ أن يقبل مواقف مماثلة، وقد ذُهِل عمر ﷺ وانطلق إلى ابنته ليسألهـا فأكدت له أنهـا لم تكن هي وبقية الزوجات يـترددن في التعبير عن آرائهـن ومجادلة النبـي ﷺ، وأنهن كُنّ يراجعنه بكل حريـة وأنه يقبل هذا الوضع،فذهـب عمـر ﷺ إلى النبـي ﷺ لينصحه بإصـلاح أوضاع حياته الخاصة على الفور، فأصغى النبي ﷺ إليه وابتسم لكنه لم يفعل شيئاً.

كان النبـي ﷺ قد عوّد زوجاته على اهتمامه بهن والحوار معهن، كان يصغي إلى نصيحتهن وظل طيلة حياته محافظاً على موقف الاحترام الذي كان يظهره لخديجة رضي الله عنها. وكان باستطاعة زوجاته التفريق بين دوره بصفته نبيًّـا وحياته بصفته زوجاً وإنساناً، بل إن عائشة ـ رضي الله عنهـا ـ كانت قد غضبت من موقف النبي ﷺ وشكوكه بعد حادثة الإفك، وعندمـا قالـت لها أمهـا أن تشكر النبـي ﷺ على ما جاء بـه الوحي من تبرئتها رفضت أن تشكره وقالت إنها ستشكر الله لا النبي ﷺ، الذي كان قد شك بها. ولم يكن محمد ﷺ يطلب أبداً بأن يعامل بأي طريقة خاصة، وكان يحـاول أن يلبي طلبـات زوجاته العديدة، ومع الوقـت، تغير الوضع، إذ إن الانتصـارات التـي تم إحرازهـا وكـثرة الأنفال قد جلبـت شيئاً من البحبوحة إلى بيت النبي ﷺ. وكانت زوجاته قد بدأن يطلبن المزيد، حيث بدا لهن أن ذلك تعويض عادل عن القيود الموضوعة عليهن بشأن مظهرهن وحركاتهن جراء مركزهن.

وقـد تسارعـت الأحداث بسبـب مجيء الجاريـة ماريا التـي أهداها المقوقـس للنبي ﷺ[6]. كانت ماريا خارقة الجمال، وكان النبي ﷺ يكثر مـن زياراته لها، فأثـار ذلك غيرة زوجات النبـي ﷺ، ولم تتردد عائشة

وحفصة ـ رضي الله عنهما ـ في انتقاد ماريا وموقف النبي ﷺ عندما كانتا تتحدثان مع بعضهما في غيابه، في أول الأمر قرر النبي ﷺ نقل مسكن ماريا بعيداً إذ إن تلك التهجمات كانت تؤلمها، وبعد فترات من الوقت، مع ازدياد الوضع سوءاً، وعد بأن يفترق عنها، لكن الوحي أثناه عن ذلك القرار الذي أجبر النبي ﷺ نفسه على اتخاذه، طلب من زوجاته الاختيار بين البقاء معه أو الطلاق[7]. هذا الوضع المتأزم أصاب الزوجات والكثير من الصحابة بالجزع، بمن فيهم عمر رضي الله عنه، حيث إن النبي ﷺ اعتزلهن، ورفض رؤيتهن مدة شهر تقريباً، إلى أن مارسن الاختيار، مثلما أمر الوحي، فقد اخترن كلهن «الله ورسوله»، كما قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ عندما سألها النبي ﷺ (حين تلا الآيات التي نزلت عليه بشأن زوجاته ومستقبله)[8].

لقد كانت ماريا الجارية اختباراً لزوجات النبي ﷺ، ففي الحياة الخاصة، كما ذكرنا، كان بإمكانهن التفريق بين مركز محمد ﷺ بصفته نبيًّا وكونه يظل بشراً يمكن توجيه النصح إليه ويمكنهن مراجعته بل حتى مجادلته، لكن لم يكن بوسعهن محاولة استخدام مركزه بصفته نبيًّا في الحياة العامة للحصول على حقوق أو معاملة خاصة من الجماعة، كما أن الوحي ذكرهن بأن كونهن زوجات لنبي أو لرجل تقي لا يؤهلهن لأن يزعمن بأنهن حصلن على صفات الإيمان وأن يعتبرن ضمنياً أنهن مصطفيات: فزوجتا نوح ولوط كانتا من الضائعين بينما نجت امرأة فرعون لتقواها، رغم أنها كانت تعيش مع رجل متكبر جبار لا يعترف بوجود الله[9]. ففي كل زوجين تكون مسؤولية وخيارات وسلوك كل زوج هو الذي يحدد مصيره

أو مصيرها. بهذا الصدد لم يكن لزوجات النبي ﷺ الادعاء بأي امتياز وكان عليهن الاتصاف بالتواضع، وقد اشتدت فتنة الزوجات بعد أن أصبحت ماريا أماً للصبي الوحيد الذي ولد للنبي ﷺ بعد القاسم وعبد الله (ابني خديجة ـ رضي الله عنها ـ اللذين توفيا في سن مبكرة). وقد سمى النبي ﷺ ابنه إبراهيم، على اسم النبي إبراهيم عليه السلام، الذي كان أهل ماريا الأقباط يعتبرونه أبا التوحيد.

العمرة

انقضى عام على معاهدة الحديبية، وحان الوقت للاستعداد لزيارة مكة حسب نص المعاهدة، وبناء عليه فقد انطلق ألفان من المسلمين مع النبي لأداء العمرة[10]. وكان بينهم رجل فقير كان قد وصل من مكة بعيد عودة المسلمين من خيبر وأقام مع أهل الصفّة، كان فقيراً رقيق الحال وسماه النبي «أبا هريرة»، لأنه كان شديد الحب للقطط، كان أبو هريرة هذا قد دخل في الإسلام في وقت متأخر نوعاً ما وأصبح واحداً من أكثر رواة أحاديث النبي ﷺ موثوقية واحتراماً.

انطلق المعتمرون إلى مكة وتوقفوا عند حدود الأرض الحرام لينتظروا خروج قريش من المنطقة والسماح للمسلمين بأداء شعائرهم بحرية وكان المسلمون يرتدون ثياب الإحرام ودخلوا مكة حينما كان القرشيون يراقبونهم من التلال المحيطة، وطاف محمد ﷺ بالكعبة سبع مرات ثم قام بالسعي سبعة أشواط بين الصفا والمروة، ثم قام بذبح جمل كأضحية وحلق شعر رأسه، وبذلك أتم شعائر العمرة وتلاه بقية المعتمرين. وقد

أراد دخـول الكعبـة ذاتها، لكن قريشـاً لم توافق انطلاقاً مـن أن ذلك لم يكـن جزءاً من اتفاقهم، ولم يخالفهم النبي ﷺ في ذلك، وبقي طيلة مدة إقامتـه ضمن بيت الله، حيث كان بلال رضي الله عنه يؤذن للصلاة خمس مرات كل يـوم بصوته الندي القوي، وقـد أُعجب الكثيرون من قريش المتمركزين في التلال مما رأوه من المسلمين، كما أعربوا عن ذلك لاحقاً، جراء ممارسات المسلمين الدينية البسيطة والمهيبة وسلوكهم.

في هذا الوقت أشهر عم النبي ﷺ، العباس رضي الله عنه، إسلامه وعرض على النبـي ﷺ الزواج من ميمونة، أخت زوجته التي كان زوجها قد توفي وقبل النبـي ﷺ العرض، وكان يرغب في أن يحتفل بزواجه في مكة، لكن قريشاً رفضت بشدة: فقد انتهت الليالي الثلاث، وكان على المعتمرين مغادرة مكة حسـب نصوص المعاهدة الموقعة في السنـة المنصرمة، فأذعن النبي ﷺ: ومنـع الصحابة مـن أن يتفوهوا بأي شيء غير ملائم عـن قريش، وغادر مكـة إلى المدينة على الفور، وقد أنشأ النبـي ﷺ أيضاً، من خلال زواجه مـن ميمونة علاقة مصاهـرة مع أشد خصومه المخزوميـين الذين أصبح بينه وبينهم صلة قرابة منذ ذلك الحين.

بعد عودة النبـي ﷺ إلى المدينة وعودة الحياة اليومية إلى مجراها، سمع بوصول غـير متوقع لثلاثة رجال كانوا قد التقوا في الطريق ووصلوا معاً لمقابلته، فقد جاء عثمان ابن طلحة وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص للدخول في الإسلام، ومبايعة النبي ﷺ الذي كانوا قد قاتلوه قتالاً شديداً طيلـة سنوات عديـدة، وقد سر النبـي ﷺ كثيراً بذلك، كمـا سر جميع الصحابة، الذين كانوا يعرفون مزايا الرجال الثلاثة: فقد كان التزامهم

صادقـاً ودون تحفـظ ولم يخيـب المستقبل ظنهـم فيهم، حيـث إنه كان حافـلاً بما حققوه من نجـاح، لقد كان دخولهـم في الإسلام، مثل دخول أبي هريرة قبل وقت قصير، ينطوي على دروس عديدة فلم يطو النسيان ماضي أشـد أعداء الإسلام بمجـرد شهادتهم بواحدانيـة الله فحسب، لكن مـا احتاجه هؤلاء الرجال لاتباع طريـق التوحيد لم ينبئ بشيء عن إخلاصهم ومزاياهـم المعنوية ومركزهم المقبل داخـل جماعة المؤمنين. فبعـد أن كانـوا معادين للنبـي ﷺ ورسالته طيلة ما يقـرب من عشرين سنـة، طرأ عليهـم تحول عميق، وأصبحوا خـلال السنتين الأخيرتين من حيـاة النبي ﷺ، مثالاً للصحابة ولجميع المسلمين عبر القرون من حيث الإيمـان ونكران الذات والاستقامة، وهكذا فإن الإيمان ـ من حيث عمقه وقدرتـه علـى تحويـل القلوب ـــ لا يقاس استنـاداً إلى الزمـن أو المنطق فصدقه وعمقه يشهدان بطبيعته، ولهذا فإن بوسع شخص حديث العهد في الإسلام أن يبلغ درجة من الاستنارة الداخلية أعمق وأكمل مما يمكن أن يبلغـه شخص آخر بعد سنوات من الممارسة الدينية، والعكس صحيح أيضـاً وهذا يقتضي من الناس، مـرة ثانية، الامتناع عن إصدار الأحكام بشأن قلوب الآخرين.

مؤتة

بعـد بضعة أشهر قرر النبـي ﷺ إرسال مبعوثين إلى الشمال، للتأكد مـن ثبات التحالفات القائمة وقدرة المسلمين على السفر إلى بلاد الشام مـن أجل تجارتهم، فتم إرسـال خمسة عشر رجلاً لكن أربعة عشر منهم قتلـوا؛ وفي الوقـت نفسـه، قُتِل مبعوث آخر، كان قـد أُرسل إلى بُصرى

أوقفه زعيم قبيلة غسان وقتله، كان من الواضح أن الخطر من بلاد الشام آخذ في الازدياد وكان لا بد من اتخاذ إجراءات بشأن جرائم قتل المبعوثين المسالمين، فقرر النبي ﷺ إرسال جيش من ثلاثة آلاف رجل، تحت إمرة الرقيق السابق زيد بن حارثة رضي الله عنه ـ الأمر الذي أثار دهشة شديدة لدى الصحابة، وأضاف أنه في حال قتل زيد رضي الله عنه، يتولى القيادة جعفر رضي الله عنه، الذي كان قد عاد حديثاً من الحبشة، إذا قتل جعفر رضي الله عنه فيحل مكانه عبد الله بن رواحة رضي الله عنه.

سار الجيش وعند وصولهم إلى قرب بلاد الشام، سمعوا بأن أكثرية من القبائل العربية قد تجمعت واستطاعت الحصول على دعم من جنود الإمبراطورية البيزنطية، بحيث أصبح عددهم أكثر من مئة ألف مقاتل. على أن عدد المسلمين كان مجرد ثلاثة آلاف رجل ولم يكن لديهم أي أمل في النصر، لذا عقد اجتماع لتقرير ما إذا كان عليهم أن يعودوا إلى المدينة وإرسال مبعوث لطلب التعزيزات أو مجرد خوض القتال على الرغم من الاختلاف الكبير بين الجيشين، فانطلاقاً من ثقة وحماس بعض الصحابة (بمن في ذلك بوجه خاص عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، الذي تحدث وهم في الطريق بأنه شعر بأنه سوف يستشهد)، قرروا المضي حسب الخطط السابقة وألا يخبروا النبي ﷺ بشيء، فوصلوا قرب الأعداء، وأمضوا بعض الوقت في مراقبتهم، ثم قاموا فجأة بتحويل سيرهم باتجاه مؤتة؛ فتبعهم الجنود العرب والبيزنطيون، ظناً منهم بأنهم كانوا ينسحبون. وعند بلوغ مؤتة، حيث كانت التضاريس أكثر ملاءمة، أمر زيد رضي الله عنه الجنود بشن هجوم مفاجئ، للوهلة الأولى أوقعت تلك الإستراتيجية البلبلة بين صفوف

الأعـداء لبعض الوقـت، لكنها لم تكن كافية لترجيـح كفة الميزان لمصلحة المسلمين الذين كانوا أقل عدداً بكثير من الأعداء، وقد قتل زيد ﷺ، وتلاه جعفـر ﷺ ثـم عبد الله ﷺ وسـادت الفوضى بين جنـود المسلمين إلى أن تولى خالد بـن الوليد ﷺ القيادة حيث جمع الرجال لحمايتهم من هجوم جديد، كانوا قد فقدوا ثمانية رجال فقط، لكنهم اضطروا للتراجع وكانت هـذه هزيمة واضحة. لكنّ خالد بن الوليد ﷺ استطاع تجنب مجابهة كان من الممكن أن تنتهي بمذبحة (11).

عند هـذه النقطة، تعرض الصحابة الذين كانوا قد بقوا في المدينة إلى تجربـة في غايـة الغرابـة، كانوا يعرفـون أن النبـي ﷺ كان يرى منامات ورؤى كانـت تتحقق في معظم الأحيان، كانوا يعرفون أنه ملهم وقد تبعوه فيما كان الوحي يتنزل عليه تباعاً، لذا فقد اعتادوا على رؤية الأبعـاد الغريبة وفوق الواقعية مـن حياته بينهم، ففي أحد الأيام، جاء محمد ﷺ إليهم، ورغم أنه لم يأتهم مبعوث من الشمال ولم يتلقوا أي معلومـات عن الحملة، فقد أخذ يصف لهم المعركة، وكأنه كان موجوداً بـين المقاتلين، فأخبرهم والدمـوع في عينيه وهو يشعر بـالألم الشديد عـن موت زيد وجعفر وعبد الله ـ رضي الله عنهم، وأشاد بمأثرة خالد وسماه «سيف الإسلام»، لكنه لم يستطع إخفاء حزنه العميق عند ذكرى الموتـى الذيـن كانوا أعزاء جداً عليـه، فذهب إلى أسمـاء ـ رضي الله عنهـا ـ زوجة جعفـر ﷺ وأطفالها ليبلغهم النبـأ ويعزيهم، وبدأ يبكي قبل أن يتمكن من الكلام، وانفجرت أسماء ـ رضي الله عنها ـ بالبكاء عندمـا سمعت بموت زوجها، ثـم ذهب النبي ﷺ إلى أم أيمن وأسامة

وأخبرهم بموت زيد ﷺ والدموع تملأ عينيه: فقد كان يحبه مثل ابنه، وكانت أسرته عزيزة عليه بشكل خاص.

وبعد مغادرته لمسكنهم خرجت صغرى بنات زيد من بيتها واندفعت إلى ذراعي النبي ﷺ الذي حاول تعزيتها والدموع تنهمر من عينيه وهو يجهش بالبكاء، وقد دهش أحد الصحابة، سعد بن عبادة ﷺ الذي تصادف مروره بهم، من هذا المشهد ولاسيما من دموع النبي ﷺ وسأله عن ذلك. فأجاب النبي ﷺ بأن ذلك كان «شوق الحبيب لمن يحبه»[12]. وكان النبي ﷺ قد علم أصحابه أن يعبروا عن حبهم وحنانهم، وفي تلك اللحظة في مواجهة فراق الموت النهائي، أعطاهم درساً بشأن الضعف البشري وسمو الدموع التي تعبر عن الحب وألم المحبين.

عاد الصحابة من مؤتة بقيادة خالد ﷺ وأكدوا رؤية النبي ﷺ: فقد كانت الأحداث مثل ما رواها. فقد قتل الصحابة وهم يقاتلون. كانت هذه الرؤى وتلك المعرفة علامات أخرى تشهد بصدق نبوة محمد ﷺ. كان متفرداً ويتصرف بمفرده ولم يكن ذكاؤه ومزاياه تشبه ما لدى الآخرين، ومع ذلك فقد ظل متواضعاً وشديد التأثر وكان يبكي، مثلهم.

ظل الوضع صعباً في الشمال، ومن المؤكد أن القبائل العربية ظنوا أن بإمكانهم استخدام هزيمة مؤتة لمصلحتهم، وبلغ محمداً ﷺ أنباء عن قيام بعض القبائل بالاستعداد لشن هجوم واسع النطاق على المدينة. فقرر حشد ثلاثمائة رجل بقيادة عمرو بن العاص ﷺ، الذين تربطه ببعض القبائل الشمالية صلة قرابة، وطلب منه النبي ﷺ أن يدرس

الوضـع ويعلمه عن حقيقـة الأمور، كما أمره بأن يقيـم تحالفات مع أكبر عـدد ممكـن من العشائـر، ثم أرسـل له مئتي رجـل آخرين لأنـه بدا أن المقاومـة كانت أقوى مما كان متوقعاً، غير أنها لم تكن هكذا، واستطاعت قـوى المسلمين الدخول إلى أرض بلاد الشام وتعزيـز التحالفات السابقة وإقامـة تحالفات جديدة، الأمر الذي أتاح تأمـين الجبهة التي كانت غير مأمونة حتى ذلك الوقت.

خرق العهد

كمـا أوردنا سابقاً، لم يكـن ميثاق الحديبية ينطبق على جماعة المدينة وقريشـ فحسب، بـل أيضاً على جميع حلفائهما، كانـت خزاعة من حلفاء محمـد ﷺ وقد تعرضت إحـدى عشائرهم، بنو كعب، إلى هجوم غادر في إحـدى الليالي من قبل بني بكر، حلفاء قريشـ، الذين قتلوا أحد رجالهم. وأرسـل بنـو كعب على الفور مبعوثـاً إلى النبي ﷺ ليعلمـه بتلك الخيانة. كانت خرقاً للعهد وقرر النبي ﷺ ألا يدع الجريمة تذهب دون عقاب: كان يجب عليه مساعدة حلفائه من خزاعة.

أمـا قريشـ، فقد أدركوا خطـورة الموقف وقرروا إرسـال مبعوث يمثل أكثر رجالهم نفوذاً لإقناع المسلمين بعدم الرد على تلك الحادثة الفردية. على أن قريشاً كانت قد دأبت منذ توقيع المعاهدة على التعدي على شروط المعاهـدة وقيودهـا، ولم يكونـوا يترددون في حـث العشائـر الأخرى على مهاجمة الجماعة الإسلاميـة لإضعافها أو حتى ليقوموا بمهاجمتها، غير أن الأمـور تجاوزت الحدود هذه المرة، وهذا ما دفـع أبا سفيان نفسه إلى الذهـاب إلى المدينة للتباحث مع النبي ﷺ. لكن النبي ﷺ كان مقتضباً

ومترفعاً، وحاول أبو سفيان أول الأمر حث ابنته أم حبيبة ـ رضي الله عنها زوجة الرسول ﷺ، لمساندته، ثم علياً رضي الله عنه لكنه لم يجد سبيلاً للتفاوض. ولزم النبي ﷺ الصمت وكذلك فعل صحابته، ولم يعرف أبو سفيان كيف يفسر الوضع.

في الأسابيع التي تبعت ذلك طلب النبي ﷺ من أصحابه أن يستعدوا للقيام بحملة، ولم يفصح لهم عن هدفها، ولم يعرف ما سيجري سوى قلة من الصحاب المقربين، وطلب منهم النبي ﷺ أن ينشروا عدة إشاعات متناقضة، فقد طلب منهم أن يقولوا بأن الجيش سوف يسير إلى بلاد الشام، أو نحو ثقيف أو ضد هوازن، وذلك بغية نشر الحيرة عبر الجزيرة برمتها.

على أنه بعد انتهاء النبي ﷺ من الدعاء في المسجد، جاءته رؤيا تخبره بأن امرأة سوف تفشي السرية حيث إنها تنقل رسالة إلى قريش تحذرهم من الهجوم الوشيك، وقد عمل على اعتراض سبيل المرأة وهي في طريقها إلى مكة وسلمت الرسالة إلى مبعوثي محمد ﷺ. وقرر محمد ﷺ أن يسامح الخائن الذي كتب الرسالة واسمه حاطب على الرغم من رغبة عمر رضي الله عنه بأن ينفذ فيه حكم بالإعدام، وظل حاطب، الذي كان تصرفه بدوافع عائلية، حراً طليقاً، وظل محمد ﷺ يركز على الاستعداد للحرب، وأرسل المبعوثين إلى كافة العشائر الحليفة ليستعدوا للانضمام إلى المسلمين في حملة لم يكونوا يعرفون مقصدها على وجه التحديد.

انطلقت الحملة في شهر رمضان، وفي بادئ الأمر ترك النبي ﷺ للمسلمين حرية الاختيار في أن يصوموا أو لا، أما هو فقد صام حتى وصلوا

إلى مـر الزهـران حيـث عسكروا وهنـاك طلب من المسلمـين التوقف عن الصيـام؛ لأنهم سوف يحتاجـون إلى كامل طاقتهم، وفي الطريق طلب من أحـد المسلمين أن يحمـي مجموعة من الجِراء رآها على جانب الطريق كي لا يطأها جيش المسلمين، مبيناً بذلك احترامه لحياة كل كائن، ومع أنه من المحتمـل أن يبدو إنقاذ بضعة كلاب مسألـة تافهة للمسلين في ذلك الوقت بالذات، إلا أنه كان حريصاً على حماية الجراء من طيش الجنود.

كان معسكـر مر الزهران يقع على مفترق طرق، فمن المحتمل أن يكون مقصدهـم إلى نجد في الشرق، أو الطائف أو مكة، وقد سمع العباس رضي الله عنه الـذي كان قد غـادر مكة ليستقـر في المدينة، بتحـركات المسلمين وانضم إليهم،. وعندما أقيم المعسكر، طلب النبي ﷺ من كل جندي أن يوقد ناراً وذلك للتأثير على معنويات العدو: فأوقد المسلمون عشرة آلاف من النيران ليوحوا بوجود جيش كبير؛ لأنه كان من المفروض أن تلبي كل نار احتياجات خمسـة إلى عشرة من الجنود، وقـررت قريش، فضلاً عن القبائل الأخرى التـي كانت تخشـى أن تتعرض لهجـوم، إرسال مبعوثـين ليستطلعوا نوايا النبي ﷺ.

ومـرة أخـرى كان أبو سفيان هو الذي جـاء إلى النبي ﷺ من قريش، ومعه مبعوثـان آخران هما حكيم وبديل لإقناعه بعـدم مهاجمة مكة، وقد تحدثـوا مدة طويلة لكنهم فهموا في خاتمة المطـاف أن تصميم النبي ﷺ كان ثابتـاً، كما أنهم شاهدوا الصحابـة وسلوكهم وجو الصفاء الذي كان سائـداً في المعسكر، فقـرر حكيم وبديل دخول الإسـلام وصرح أبو سفيان بأنـه يقبل الجزء الأول من الشهادة: («أشهد أنّ لا إله إلا الله») لكن لديه

بعض الشكوك بشأن مركز النبي ﷺ؛ فقد كان بحاجة إلى بعض الوقت قبل النطق بالجزء الثاني من الشهادة «أنّ محمداً رسول الله»[13]. وقد أمضى الليلة في المعسكر، وبعد صلاة الفجر، بعد أن شاهد صلوات المسلمين وتفانيهم وسلوكهم إزاء النبي ﷺ، قرر، بناء على نصيحة العباس، أن ينطق بالشهادة كاملة، كان النبي ﷺ يعرف أن هذا التغير لايزال هشاً وطلب من العباس رضي الله عنه أن يصحب أبا سفيان إلى حافة الوادي كي يرى الجيش الإسلامي وهو يمر به، وهذا أنتج الأثر المرغوب، حيث إنه ترك أثراً عميقاً في نفس أبي سفيان، وقبل ذلك كان العباس رضي الله عنه قد همس في أذن النبي ﷺ مذكراً إياه بأن أبا سفيان يحب أن يكون له ميزة تشرفه وألا ينسى ذلك، ولم يغب عن بال محمد ﷺ العالِم بنفسية الرجال، تلك النصيحة وأعلن بأن كل شخص في مكة يدخل بيت أبي سفيان فهو آمن ومن دخل حرم الكعبة فهو آمن ومن بقي في بيته فهو آمن، أسرع أبو سفيان عائداً إلى مكة قبل وصول الجيش إليها ونصح الجميع (رغم هزء زوجته به التي وصمته بالجنون والجبن، وهزء زعماء آخرين مثل عكرمة ابن أبي جهل والذي وجه إليه الإهانات) بالاستسلام وعدم مقاومة جيش محمد ﷺ غير العادي في ضخامته.

وهكذا فقد حول محمد ﷺ أبا سفيان إلى حليف، لا لأن أبا سفيان دخل في الإسلام فحسب، بل أيضاً لأن النبي ﷺ أخذ بالاعتبار طبعه وشخصيته، فأبو سفيان شهد بوحدانية الله في أول الأمر لكنه وجد من الصعب إيلاء مركز خاص لرجل قاتله واعتبره نداً له، وكان محمد ﷺ قد فهم ذلك ولم يستعجله، بل أعطاه الوقت ليشاهد ويفهم بنفسه، وحتى

بعد اعتناق أبي سفيان الإسلام، كان النبي ﷺ يدرك أنه كان لايزال لديه ميل للقوة والمجد وأخذ هذا في الاعتبار حين جعله يشاهد قوة جيش المسلمين وأولاه دوراً خاصاً في الحل المحتمل للصراع، ومع أن محمداً ﷺ كان يصر على المبادئ العامة، إلا أنه كان يستطيع أخذ بعض المزايا في الاعتبار، فقد كانت رسالته إصلاح المزايا من خلال المبادئ، لكنه لم يهمل أبداً الطباع والطموحات والجوانب الخاصة التي تكون شخصية كل فرد. فرسالته تصر على المساواة للجميع، فضلاً عن سيكولوجية الاختلافات وفردية كل شخص في مجال الإيمان.

العودة

يروي معظم الرواة أن محمداً ﷺ دخل مكة في العشرين أو الواحد والعشرين من رمضان من السنة الثامنة للهجرة (630م)، كان محمد ﷺ قد قسم جيشه إلى فرق أحاطت بمكة وأطبقت عليها كلها في المركز. وتمركز بعض جماعات من قريش عند التلال بقيادة سهيل وعكرمة وصفوان، ولكن بعد المواجهات الأولى، أدركوا ألا جدوى من المقاومة، فلجأ سهيل إلى داره ولاذ عكرمة وصفوان بالفرار، وقد أمر النبي ﷺ بعدم القتال في ذلك اليوم الذي سماه «يوم المرحمة» (14).

قبل حوالي ثماني سنوات، كان محمد ﷺ قد غادر مكة سراً، ولكن بكرامة مرفوع الرأس، وقد عاد الآن إلى مكة في ضوء النهار، منتصراً، لكنه هذه المرة أحنى رأسه وهو على مطيته شكراً للواحد الأحد وهو يتلو الآيات من سورة الفتح:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا﴾[3].

لقد دخل مكة بكل تواضع وطلب إظهار منتهى الرقة للأعداء السابقين للمسلين، فاغتسل وصلى ثماني ركعات قبل أن يستريح لبضع ساعات، بعدئذ ركب ناقته القصواء وذهب إلى الكعبة وطاف حولها سبع مرات، ثم أشار بقضيب كان بيده على الأصنام فوقعت الأصنام وهو يردد الآية ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[16]. وأمر بإحضار مفاتيح الكعبة وطلب طمس ما فيها من صور وذلك لتكريس بيت الله لعبادة الواحد الأحد الذي لا يمكن تصويره بأي حال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[17].

كانت عملية التدمير التي قام بها النبي ﷺ، من حيث الظاهر، النقيض التام لكل ما درج على فعله منذ مغادرة المكان المقدس لعبادة الله الواحد الأحد، على أن هذه العملية كانت، على صعيد الرسالة الروحية، من ذات الجوهر التوحيدي، إذ إنه بتحطيم الأوثان التي كانت داخل الكعبة وبجوارها كان يحطم ما كان، عبر القرون، قد شوّه عبادة الواحد المتعال، بهذه العملية حول محمد ﷺ الكعبة إلى مسجد حقيقي، لا يعبد فيه بعدئذ سوى الواحد الأحد.

أخذ القرشيون يخرجون من بيوتهم تدريجياً ليتجمعوا داخل الحرم.

وبعد تحطيم الأوثان تلا النبي ﷺ عليهم: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده»[18]. ثم التفت إلى قريش وحدثهم عن قواعد الإسلام وتلا هذه الآية:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾[19].

بعدئذ سألهم: «ماذا تظنون أني فاعل بكم؟»[20] فأجابوا «أخ كريم وابن أخ كريم» فمن المؤكد أنه سيعاملهم بالإحسان[21]. هنا تلا النبي ﷺ الآية الواردة في سورة يوسف عندما اجتمع شمله مع إخوته، الذين كانوا يريدون قتله: ﴿ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[22]. ثم قال «اذهبوا فأنتم الطلقاء!»[23]. لقد صفح النبي ﷺ عن جميع النساء والرجال الذين أتوا إليه أو إلى أحد الصحابة. وقد صفح أيضاً عن وحشي بن حرب، الذي قتل حمزة رضي الله عنه، لكن النبي ﷺ طلب منه أن لا يريه وجهه في المستقبل، ودخل الكثيرون من قريش في الإسلام عند الصفا أمام عمر رضي الله عنه. فقبل بضع سنوات وصم القرشيون النبي ﷺ بالكذب في هذه البقعة نفسها، وعندما جاء عكرمة بن أبي جهل إلى النبي ﷺ حذر النبي ﷺ أصحابه قائلاً: «لقد جاءكم عكرمة بن أبي جهل، مؤمناً. فلا تسبوا أباه، لأن سب الأموات يؤذي الأحياء ولا يصل إلى الأموات». وهكذا فقد ذكَّرهم لا بالعفو فحسب، بل أيضاً بأن يتذكروا بأنه لا يجوز اعتبار أحد مسؤولاً عن أخطاء شخص آخر، حتى ولو كان أباه، وهو المعنى الذي تضمنته الآية القرآنية: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴾[24]. فالحكمة مطلوبة مثل نبل النفس.

أقام النبي ﷺ في مكة أسبوعين وأخذت الأمور تستقر، وقد أرسل بعثات إلى الذين أعلنوا قبولهم للإسلام الذي أبطل كل عبادة للأوثان. وقد تم تكليف خالد بن الوليد رضي الله عنه بمثل هذه المهمة لدى بني جذيمة الذين استسلموا في خاتمة المطاف، لكن خالداً رضي الله عنه قرر -مخالفاً لرأي عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه- إعدام أفراد الأسرة الذين كان يكنّ لهم استياءً شديداً، فبعد إعدام بعضهم توقف بناء على إصرار عبد الرحمن الذي أوضح له بأن الباعث لسلوكه كانت دوافع غير الإيمان بالله والعدل، وقد غضب النبي ﷺ غضباً شديداً عند سماعه بما فعله خالد وقرر دفع دية جميع القتلى وظل يردد بصوت عال. «اللهم إني أتبرأ إليك مما فعله خالد بن الوليد!»[25].

كان طريق تهذيب قلوب وضمائر مسلمي المدينة ومكة لايزال طويلاً. فقد ظلت العادات المتأصلة والمشاعر المتجذرة تبرز إلى السطح وتتجلى على شكل سلوكيات مخالفة لتعاليم الإسلام، وعلاوة على ذلك، فقد اقتضى دخول المكيين الجماعي في الإسلام جهوداً إضافية في مجال التربية الإسلامية، وقد طلب النبي ﷺ من معاذ بن جبل رضي الله عنه أن يعطي الأولوية لذلك: كان ينبغي تربية وتعليم الداخلين حديثاً في الإسلام مبادئ دينهم الجديد، من المفارقة أن الوحدة في الضراء التي كانت سائدة حتى ذلك الوقت، كانت أسهل تحقيقاً من الوحدة في الإيمان والمحبة والاحترام التي كان لابد بعد الآن من إرساء قواعدها حيث إنه لم يعد يوجد أعداء رئيسون في المنطقة.

عـاد النبـي ﷺ إلى المكان الـذي انطلقت منه رسالتـه، لقد تعرض للاضطهاد ثم النفي ثم الحرب وها هو يعود إلى الأهل سلمياً، تحيط به هالـة الانتصار، لقد كانت هذه، أكثر من الطريق المادي للحياة، الرحلة الافتتاحية لقلب وضمير يمر عبر مراحل من الجهاد الأعظم الذي ينقل النـاس من التوتر الطبيعي للانفعـالات إلى سلام التربية الروحية، لقد عـاد مختلفاً مـن حيث عمق جهوده وصبره، ولكن مـع ذلك هو نفسه في إخلاصـه للرسالة، عندما غـادر مكة دعا الله الواحـد الأحد وهو واثق مـن أنـه لابد أن يعـود يوماً ما إلى الوطـن ليصلي عند عتبـة باب الله. وهكـذا فقد غادر مكة إنساناً يقوم برحلة حياته وكله قناعة بأنه لابد أن يعـود يوماً ما إلى الأهـل، إلى المركز، القريب من قلبه ويعود إلى مصدر الحياة، إلى نبض الحياة في كنف الله.

obeikandl.com